السورة الثامنة عشرة

البيّنة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ ﴾

هذه هي السورة السادسة عشرة حسب الترتيب العكسيّ لسور القرآن الكريم، وهي تتكوّن من ٩٤ لفظاً سنتوقّف فيها عند ١١٣ موقعاً جديداً أضافه القرآن الكريم إلى معجمنا العربيّ بجانبيه: المحكيّ والمكتوب، لفظاً واصطلاحاً وصياغةً وعلاقةً لغويّةً وسبيكةً ولغةً منفتحةً وعباراتٍ سائرة.

وسيلاحظ القارئ أنّني أغفلت تماماً الحديث عن الصور البيانيّة في السورة، وليس ذلك لانعدام الصور فيها، وهي كثيرة، وإنّما لتحرّجي من تناول هذه الصور بالتحليل وهي صورٌ لأمورٍ غيبيّةٍ تدخل في جوهر العقيدة وتتأرجح بين الحقيقة والمجاز، فلا تكاد تدرك أين ينتهي فيها المجاز لتبدأ الحقيقة، ولا العكس.

ولا شكّ أنّ من أشقّ الأمور في العقيدة، وأخطرها على هذه العقيدة، أن تخوض في الغيبيّات "المنفتحة" على كلّ الاحتمالات، لتضع يدك قسراً على الحدود المتداخلة وغير المادّية لعناصر أبعد ما تكون عن إمكان تلمّسها بوسائلك الحسّية البشريّة المحدودة، من مثل "الصحف المطهّرة" و"الكتب القيّمة" و"مجيء البيّنة" و"إخلاص الدين لله" و دين "القيّمة" وجنّات "عدْن" و"جريان الأنهار تحت الجنّات" و"رضاهم عن الله".. من أجل ذلك كلّه فضّلت سلامة الخروج من معركة الحديث عن المجاز في السورة على الزجّ بنفسي في حقل ألغامٍ خطيرٍ كهذا.

وسنرى أنّ الشخصيّة اللغويّة لهذه السورة، التي تميّزها عن أيّة سورةٍ أخرى، تستند إلى كثرة الألفاظ الاصطلاحيّة الجديدة فيها والتي تصل إلى ١٢ لفظاً، كما تستند إلى عددٍ من الأدوات والألفاظ والتعابير الجديدة التي انفردت بها عن سائر السوَر، ومنها الأداة (لَمْ) التي جاءت بمعنى (لا) أو (لن)، واللفظان (منفكّين، وقيّمة) والتعبيرات (صُحفاً مطهّرة، تأتيهم البيّنة، دينُ القيّمة، كتبٌ قيّمة، شرُّ البريّة، خيرُ البريّة، خَشي ربَّه).

كما تختصّ السورة بالاستخدام الجديد والمتفرّد للتعبير النحوي (لم يكن.. منفكّين) وكذلك التوالي الغريب للأحوال المختلفة الثلاث (تجري.. خالدِين فيها.. رضي الله عنهم) كما سوف نرى.

أوّلاً: الألفاظ والمصطلحات

١- لم:

هذه من الأدوات العديدة التي يخرج القرآن الكريم في استعمالها على أعراف العربيّة، مثلها مثل (كان) التي رأينا كيف استعملها بمعنى (إنّ)، وكذلك (إنْ) التي استعملها القرآن بمعنى (ما النافية)، و (لمّا) التي استعملها بمعنى (إلاّ)، وقد اجتمع الاستعمالان الأخيران في قوله تعالى:

- ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الزُخرُف: ٣٥]

فجاءت (إنْ) في الآية بمعنى (ما) وجاءت (لمّا) بمعنى (إلاّ)، أي: وما كلّ ذلك إلاّ متاع الحياة الدنيا.

وقد جاءت (لم) في السورة بمعنى (لا) أو (لن) أي: لن ينفكّوا؛ أي: هم سيستمرّون كذلك. ونُقل في سبب نزول الآية أنّ أهل الكتاب وعبدة الأصنام كانوا يقولون قبل مبعث النبيّ ﷺ: لا ننفكّ ممّا نحن عليه من دِيننا ولا نتركه حتّى يُبعثَ النبيّ الموعود الذي هو مكتوبٌ في التوراة والإنجيل، فحكى الله تعالى ما كانوا يقولون، ثمّ قال: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني أنّهم كانوا يَعدّون مجيء الرسول إيذاناً باجتماع الكلمة والاتفاق على الحقّ، فلمّا جاء تفرّقوا عن الحقّ واستقرّوا في الكفر.

أرأيت كيف تغيّر استعمال الأداة بين كلام البشر حين قالوا (لا ننفكّ ممّا نحن عليه) وكلام الله تعالى: (لَمْ يَكُنِ .. مُنفَكِّينَ) فحلّت (لم) هنا محلّ (لا) هناك؟

ويختلف معنى (لم) في هذه السورة عن معناها في سورة (الإخلاص): ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ فهي هناك أوسع زمناً وشمولاً؛ لأنّها بمعنى (لم ولا ولن) كلّها معاً؛ أي: إنّ الله لم ولا ولن يكون له كفواً أحدٌ. ولا شكّ أنّ الاستخدام القرآنيّ الخاص للفعل الناقص (يكون)، كما سبق أن رأينا خلال حديثنا عن المعاني الجديدة للأدوات القرآنيّة في الجزء الأوّل من هذه الدراسة، قد انعكس على معنى الأداة (لم) التي سبقت هذا الفعل في كلتا السورتين، فاكتسبتا بهذا التأثير معنييهما الجديدين.

٢- ٣- كفروا [مكرّر]:

عرفنا عند دراستنا لسورة (الكافرون) أنّ الفعل (كفر) قد اكتسب في القرآن معنىً جديداً لم يكن عليه في العصر الجاهليّ، إذ كان يعني آنذاك الجحود والنكران، وكذلك التغطية. لقد غدا الآن مصطلحاً يراد به كلّ من لم يؤمن بالله ورسالاته "فكَفَر" نِعمة التبليغ والهداية، أو "غُطِّيَ" قلبُه أو عقله عن معرفة الحقّ.

٤- ٥- ٦- الكتاب [مكرّر ٣ مرّات]:

لو استقْرَينا المرّات القليلة التي ورد فيها هذا اللفظ في الشعر الجاهليّ لوجدناه هناك يحمل معنى (الرسالة) أو (الصحيفة)، وربّما (القَدَر) كذلك، كما نرى في هذه الأبيات:

هل عَرَفْتَ الديارَ عن أحقابِ ... دارساً آيُها كخطِّ الكتابِ

عمرو بن قُميئة (ت٨٥ ق.ه)

ألا لا تفخَرَنْ أَسَدٌ علينا ... بيومٍ كان حَيْناً في الكتابِ

الخِرْنِق بنت بدر (ت٥٠ ق.ه)

لِمَنْ دِمنةٌ أقْوَتْ بحَرَّة ضَرْغَدِ ... تَلوحُ كعنوانِ الكتابِ المجَدَّدِ

عَبيد بن الأبرص (ت٢٥ ق.ه)

لِمَن طَللٌ مثلُ الكتابِ المنمَّقِ ... خَلا عهدُهُ بين الصُلَيْبِ فمُطْرِقِ

سَلامة بن جندل (ت٢٣ ق.ه)

أأَجْرَمَ أم جَنَى أم لم تَخُطّوا ... له أَمْناً فيوجَدَ في الكتابِ

الطُفَيل الغُنَويّ (ت١٣ ق.ه)

ومن الواضح أنّه جاء في معظم الأبيات بمعنى (رسالة) أو (صحيفة)، أمّا في بيت الخِرْنِق فهو بمعنى (القَدَر المكتوب). حتّى إن افترضنا معرفة الجاهليّين بالمعنى الذي نعرفه حاليّاً للكتاب، وهو مجموعة الأوراق أو الصحائف التي يضمّها غلافٌ واحد، فإنّ القرآن اصطلح بلفظ (الكتاب)، هنا وفي معظم مواضعه في القرآن، على أنّه الكتب السماويّة، وقد أُطلق في هذه السورة، وحيثما اقترن باللفظ (أهل)، أي (أهل الكتاب)، على التوراة والإنجيل دون غيرهما.

ولعلّ من المفيد أن نذكر هنا أن لفظ (الكتاب) لم يقتصر دائماً في القرآن على الكتب السماويّة، رغم أنّها نالت النصيب الأعظم من هذا اللفظ، بل اتخذ

فيه معاني عديدةً أخرى، منها المعنى الذي ورد في بيت الخِرْنِق، وهو القَدَر أو أيّ شيءٍ يُفرض على الإنسان، كقوله تعالى:

- ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾ [آل عمران: ١٤٥]

- ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾ [النساء: ١٠٣]

ومنها المعنى الذي ورد في بقيّة الأبيات التي استشهدنا بها، وهو الرسالة أو الصحيفة:

- ﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ [النمل: ٢٨]

ومنها كذلك (عِلْم الله) أو (اللوح المحفوظ) حيث كُتِب كلُّ شيء من عِلمٍ أو قَدَر:

- ﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ [طه: ٥٢]

ومنها أيضاً (السجلّ) بغضّ النظر عن شكل هذا السجلّ أو حجمه أو طبيعته:

- ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾ [الإسراء: ١٣]

- ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ [الكهف: ٤٩]

ومنها (العقد) أو (الاتّفاق المكتوب) الذي يكون بين السيّد والعبد:

- ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ ﴾ [النور: ٣٣]

ومنها أخيراً (الأحكام الإلهيّة) وهو المعنى الذي يحمله الجمع (كُتبٌ) في هذه السورة، وكذلك في قوله تعالى:

- ﴿ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٢]

- ﴿ وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ [الأحزاب: ٦]

٧- ٨- المشركين [مكرّر]:

بدهيٌّ أن يخلو الشعر الجاهليّ تماماً من هذا المصطلح القرآنيّ الجديد، وهو يتردّد كثيراً في كلٍّ من القرآن الكريم والحديث الشريف، ويُطلق عادةً على الوثنيّين من العرب من غير أهل الكتاب، ولهذا عُطف مرّتين في هذه السورة على (أهل الكتاب) للتفريق بينهما، ويتأكّد لنا هذا التفريق في قوله تعالى:

- ﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة: ١٠٥]

٩- منفكّين:

ينفرد القرآن في كلّ تراثنا، شعراً ونثراً، باستعمال هذا اللفظ، وتنفرد هذه السورة به فلا يتكرّر في غيرها أبداً. والأغرب من ذلك ألاّ نعثر في القرآن على الفعل الناقص الذي اشتقّ منه في الأصل؛ أي (ما انفكّ)، في أيّة صيغةٍ من صيغه، رغم أنّ الجاهليّين كانوا يستخدمونه بكثرة وبمثل هذه الطرائق:

الناحرُ الكُومَ ما ينفكُّ يُطعِمُها ... والواهبُ المائةَ الحمرا بِراعيْها

مُهلهِل بن ربيعة (ت٩٤ ق.ه)

إذاً بَرَيتُكَ بَرْياً لا انجبارَ لهُ ... إنّي رأيتُكَ لا تنفكُّ تَبْريني

ذو الإصبع العدوانيّ (ت٢١ ق.ه)

الضامنون فما تنفكُّ خيلُهمُ ... شُعْثَ النواصيْ عليها كلُّ مُشتهِرِ

زهير بن أبي سُلمى (ت١٣ ق.ه)

١٠- ١١- البيّنة [مكرّر]:

رغم ورود هذا اللفظ ١٩ مرّةً في القرآن، فإنّه لم يُعرَّف إلاّ في هذه السورة، وفي المرّتين اللتين ورد فيهما. ولا وجود للّفظ في الشعر الجاهليّ.

١٢- رسولٌ:

وهو مصطلحٌ جديدٌ آخر من المصطلحات التي أوجدها القرآن في اللغة العربيّة، فالرسول الآن هو محمّدٌ ﷺ، وكذلك غيره من رسُل الله، أمّا اللفظ في العصر الجاهليّ فلم يكن يتجاوز معنى حامل النبأ أو البريد:

ألا أبلِغا عبدَ الضلالِ رسالةً وقد يُبلغُ الأنباءَ عنكَ رسولُ

طَرَفة بن العبد (ت٦٠ ق.ه)

بَلِّغ قبائلَ شتّى في محلِّهمُ وقد يجيءُ رسولُ القومِ بالخَبَرِ

زهير بن أبي سُلمى (ت١٣ ق.ه)

١٣- يتلو:

التلاوة غير القراءة، فلم يكن الرسول ﷺ قارئاً كما نعرف، بل كان يتلو عن ظهر قلبه ما أخذه عن جبريل عليه السلام.

وقالوا "إنّ التلاوة هي من (تلاه بالقرآن) أي (تبعه) فهي من (الاتّباع)، وسُمّي القارئ تالياً والقراءة تلاوةً؛ لأنّه يُتبع بعضَ الكلام ببعض". وأنا أقول: بل هو مِن تتبّعِ الرسولِ ﷺ فيما كان يقرأه عليه (جبريل) فكان يتلوه، أي يتبعه، آيةً آيةً وكلمةً كلمةً وحرفاً حرفاً، ثمّ تلاه بالقراءة الصحابة الكرام، وتلاهم التابعون، ثمّ من تبعهم إلى هذا اليوم.

ومن المنتظر إذن ألاّ نعثر على هذا اللفظ في الشعر الجاهليّ. والمرّة الوحيدة التي نصادفه فيها هي عند شاعرٍ لا نعرف عنه الكثير ولا عن تاريخ وفاته، وهو الحارث المِذحَجيّ، وأكاد لا أشكُّ، بقليلٍ من النظر في لغة البيت، أنّ البيت منحولٌ إليه، وهو:

ونؤمنُ بالإنجيلِ والصُحُفِ التي بها يهتدي مَن كان للوحيِ تاليا

كيف وقد جاءت قبل هذا البيت الأبياتُ الخمسة التالية ذات اللغة البسيطة واللّيّنة، والطابع الإسلاميّ الواضح، والتي تتضمّن ما لا يقلّ عن ١٤ لفظاً قرآنيّاً لم يعرفها الشعر الجاهليّ قبل نزول القرآن الكريم:

فلمّا أراد الله رُشْدي وزُلْفتي		أضاءَ سبيلَ الحقِّ لي وهَدانِيا
فألقيتُ عنّي الغَيَّ للرُشْدِ والهدى		ويمّمْتُ نُوراً للحَنيفةِ باديا
وصِرتُ إلى عيسى بنِ مريمَ هادياً		رشيداً فسمّاني المسيحُ حَوارِيا
بَنِيَّ اتّقُوا اللهَ الذي هو ربُّكمْ		بَراكمْ له فيما بَرا وبَرانِيا
فنعبدَهُ سبحانهُ دون غيرِهِ		ونستدفعُ البلوى به والدواهيا

١٤- كتبٌ:

لقد ذهبوا عدّة مذاهب في تفسير هذه الصيغة الجمعيّة للفظ (الكتاب). وأنا أمِيل إلى رأي من قال إنّه هنا بمعنى (الأحكام) أو التشريعات، أو ربّما النصوص أو السُّوَر، التي أنزلها الله على نبيّه ﷺ. ولكنّه على أيّة حالٍ لفظٌ جديدٌ بمعناه على اللغة العربيّة، مهما تعدّدت المذاهب في تفسيره، كما بيّنا في الحديث عن لفظ (الكتاب).

١٥- ١٦- قيّمة/ القيّمة:

لفظٌ آخر لا وجود له في الشعر الجاهليّ، وهو يتكرّر في هذه السورة مرّتين، ولا نجده بعد ذلك في أيّة سورةٍ أخرى. وعرف العرب في الجاهليّة مذكّر هذا اللفظ، ولكن بمعنىً مختلف وهو (المسؤول) أو (القائم على)، ومنه قول المرقّش الأكبر (ت ٧٢ ق.هـ):

وقَدِّرْ تَرى شُمْطَ الرجالِ عِيالُها		لها قَيِّمٌ سَهْلُ الخليقةِ آنِسُ

ويخلو الحديث الشريف من هذا اللفظ، إلاّ أن يكون في صيغة التذكير أيضاً (قيّم) وبالمعنى الذي عرفه الشعر الجاهليّ.

obeikan.com

١٧- أُوتُوا:

لم يستخدم الشعراء الجاهليّون هذا الفعل بالمعنى القرآنيّ الخاصّ (مُنِحوا) مطلقاً، وإنّما عرَفوا الفعل بمعنىً آخر هو (يُقصَد إليه) أو (يُلبَّى أو يطاع). ويظهر المعنيان في هذين البيتين على التوالي:

مَثَلاً يَضرِبُه حُكّامُنا قولُهم: في بيتِه يُؤتَى الحَكَم

المثقَّب العبديّ (ت٣٦ ق.ه)

وجدتُ أبي فيهمْ وجَدّي كليهما يُطاع ويؤتى أمرُه وهو محتبي

بَشامة المُرّيّ (ت١٤ ق.ه)

١٨- ليَعبُدوا:

عرفنا عندما درسنا الفعل (نعبد) في سورة (الفاتحة) جِدّة استعمال هذا الفعل على العرب بمعناه القرآنيّ، وتبيّنّا الفرق بين العبادة بمعناها الجاهليّ والعبادة بالمعنى الإسلاميّ، وميّزنا بين العبادة (عبادة الله) والعبوديّة (استعباد السيّد لعبده).

١٩- مُخْلِصِين:

يقتصر استعمال جذر هذا اللفظ (أخلص) في الشعر الجاهليّ على معنى (صقل السيف وهذّبه) كما نتبيّن في البيتين التاليين في وصف السيوف:

إنّنا نَضرِبْ ببِيضٍ أُخلِصَتْ فلها مِن جَوهرِ العِتْقِ نِجارُ

الفَنْد الزمانيّ (ت٩٥ ق.ه)

تَمَنّانيْ وأبيضَ مَشْرِفِياً أُشاحَ الصَدْرِ أُخْلِصَ بالصِقالِ

ذو الكَلْب الهُذَليّ (ت؟)

وما يزال اللفظ بعيداً عن استعمالاتنا اليوميّة، ولم أجده بهذا المعنى الجديد، وهو الإخلاص وصدق التوجّه، في غير القرآن، إلاّ أن يقع في سياقٍ أو اقتباسٍ قرآنيّ.

obeikan.com

لقد جاء الإخلاص هنا، كما في معظم الاستعمالات القرآنيّة لهذا اللفظ، إخلاصاً لدِين الله وليس للهِ مباشرةً، فنحن نُخْلص الدِين لله؛ أي نجعل توجّهنا في عبادتنا وعقيدتنا خالصاً له وحده، وإذن فقد عَمِل عمَل فعلٍ متعدٍّ فأخذ مفعولاً به هو (الدين) على حين يكون في استعمالاتنا اليوميّة، وكذلك في الحديث الشريف، بمعنى (صادق) أو (نقيّ التوجّه)، فيعمل، إذا عمل، عمل الفعل اللازم فلا يحتاج إلى مفعولٍ به، ومنه قوله ﷺ:

- ما قال عبدٌ لا إله إلاّ الله قطّ، مُخْلِصاً، إلاّ فُتِحتْ له أبوابُ السماء حتّى تُفْضِيَ إلى العرش، ما اجتَنبَ الكبائر(١).

- من سألَ اللهَ الشهادةَ مُخلِصاً أعطاه الله أجْرَ شهيدٍ ولو ماتَ على فِراشِه ...(٢)

ولا نجده في القرآن بهذا المعنى النبويّ؛ أي غير المتعدّي إلى مفعول، إلاّ في آيةٍ واحدةٍ هي قوله تعالى:

- ﴿ وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٩]

٢٠- حُنَفاء:

اختلفوا كثيراً حول معنى هذا اللفظ، ولكنّه يبقى لفظاً قرآنيّاً جديداً بمعناه، أو جديداً لفظاً ومعنىً، على تعدّد المعاني التي اقترحوها له. ولم أجده إلاّ عند شاعرين جاهليّين: الأوّل مجهول الولادة والوفاة وهو الحارث المِذحجيّ، وقد شكّكت قبل قليلٍ في نسبة القصيدة إليه لوضوح إسلاميّتها، وفي تلك القصيدة نفسها نجد هذا البيت:

فألقيتُ عنّي الغَيَّ للرُشْدِ والهدى ... ويمّمْتُ نُوراً للحَنيفةِ بادِيا

والثاني هو الشاعر صخر الغيّ، وهو أيضاً ممّن لا نعرف تاريخ ولادتهم أو وفاتهم، ويُنسَب إليه هذا البيت الذي نجد الروح الإسلاميّة أيضاً واضحةً فيه:

---

(١) الترمذي، **الجامع الصحيح (سنن الترمذي)**، مرجع سابق، ج٥، ص٥٧٥، حديث رقم ٣٥٩٠.

(٢) الشيباني، **مسند الإمام أحمد**، مرجع سابق، ج٣٦، ص٤٢٥، حديث رقم ٢٢١١١.

كـــأنّ تَواليَـــــــهُ بالـمَـــــــلا نَصـــاري يُســاقَون لاقَــواحَنيفا

وأيّاً كانت حقيقة استعمال اللفظ، وبدء تاريخ استعماله، فإنّ القرآن قد منحه أبعاداً جديدةً لم يعرفها قبل الإسلام، حين أطلقه على كلّ الرسالات السماويّة التي تلت رسالة إبراهيم عليه السلام، ومنها رسالة الإسلام نفسه.

٢١- يُقيموا:

لا بدّ من التفريق بين "الإقامة"، وهي هنا المحافظة على فعل الشيء وأدائه، و"القيام" وهو النهوض، وقد ورد كلا المعنيين في القرآن، إلى جانب معانٍ أخرى غيرهما. ومعظم هذه المعاني كان غريباً على الشعر الجاهليّ؛ فاللفظ هنا يعني (المحافظة على الصلاة)، ولكنّه قد يعني الصلاة نفسها في آيةٍ أخرى:

- ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ ﴾ [التوبة: ١٠٨]

وقد يعني الثبات والاستمرار في مكانٍ آخر، كقوله تعالى:

- ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ﴾ [الروم: ٢٥]

وقد يعني الوقوع أو الحدوث، كما في الآية:

- ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم: ٤١]

أو قد يكون التوجيه والتسديد وإخلاص العمل، كالآية:

- ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ ﴾ [الروم: ٣٠]

وقد يعني التطبيق والاتّباع، كما في قوله تعالى:

- ﴿ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ ﴾ [الشورى: ١٣]

أو يعني رفع البناء أو ترميمه في آيةٍ أخرى، كقوله تعالى:

- ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ ﴾ [الكهف: ٧٧]

أمّا في الشعر الجاهليّ فلم أجد له إلاّ معنيين: الأول هو المُكث والبقاء، وهذا هو المعنى الشائع في لغتنا اليوم وقد استخدمه ذو الكلب الهُذَليّ (ت؟) في قوله:

أَقَمْتُ بِرَيْدِها يوماً طويلاً ولم أُشْرِفْ بها مثلَ الخيالِ

والثاني لعنترة (ت٢٢ ق.هـ) وهو بمعنى الإحداث أو التأسيس، ويتردّد هذا المعنى في أكثر من بيتٍ عند الشاعر، ومنها قوله، إن صحّت لدينا نسبة الأبيات:

- سَلِيهِمْ يُخْبِروكِ بأنّ عَزمي أقامَ برَبْعِ أعداكِ النواعي
- أقمتُ بصارمي سُوقَ المنايا ونِلْتُ بذابِلي الرُتَبَ العَلِيّة
- أقمْنا بالذوابلِ سُوقَ حربٍ وصَيَّرْنا النفوسَ له مَتاعا

٢٢- الصلاة:

سبق أن تحدّثنا عن جدّة استعمال الفعل (صَلِّ) في سورة (الكوثر)، وهذا لفظ (الصلاة) وقد غدا الآن مصطلحاً قرآنيّاً يشير إلى الشعيرة الخاصّة التي يؤدّيها المسلمون خمس مرّاتٍ كلّ يوم.

٢٣- الزكاة:

وهو مصطلحٌ قرآنيٌّ آخر أُطلِق على أحد الأركان الخمسة للإسلام، وهو الركن الذي يقتضي من المسلم دفع نسبةٍ سنويّةٍ معيّنةٍ من ماله لأعمال البرّ والخير حتّى "يزكّي" ماله، أي: يطهّره وينقّيه من الدنس والحرام والاستئثار.

٢٤- ويُؤتُوا:

نرجع هنا إلى حديثنا قبل قليلٍ عن الفعل (أُوتوا) فكلا اللفظين قرآنيٌّ جديدٌ مشتقٌّ من الفعل (آتَى) بمعنى (أعطى).

٢٥- جهنّم:

لا نجد هذا اللفظ إلاّ في بيتٍ واحدٍ يُنسب إلى الشاعر الجاهليّ نفسه الذي نُحلَ له من الشعر، كما أكّدنا دائماً، ما لم يُنحل لغيره، وهو عنترة. يقول البيت:

ماءُ الحياةِ بذِلّةٍ كجهنّمٍ وجهنّمُ بالعِزِّ أطيبُ منزلِ

وواضحٌ في البيت أثر مفهوم المصطلح الإسلاميّ لجهنّم، وهو مفهومٌ لم يكن معروفاً في الثقافة الجاهليّة، بل لم يتبلور في الثقافة الإسلاميّة إلاّ بعد أن تتالى نزول الآيات في الحديث عن الجحيم فتكرّر اللفظ فيها ٧٧ مرّة، عدا عن المرّات العديدة التي ورد فيها وصف جهنّم تحت أسماء أخرى.

٢٦- آمَنوا:

مصطلحٌ جديدٌ بمعنى (أسلموا) سبق أن وقفنا عنده في سورة (العصر).

٢٧- الصالحات:

سبق أن تحدّثنا في سورة (العصر) عن هذا اللفظ القرآنيّ الجديد وعن إطلاقه لأوّل مرّة، وبصيغة جمع المؤنّث هذه (صالحات وليس: صالحة)، لوصف أعمال الخير من غير الحاجة إلى أن يسبقه ذكر اللفظ (أعمال).

٢٨- جنّات:

كان معنى (الجنّة) في الجاهليّة يقتصر على جنّة الأرض؛ أي الحدائق والبساتين، وهو معنىً استخدمه القرآن أيضاً في آياتٍ أخرى، كقوله تعالى:

- ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾ [البقرة: ٢٦٦]

- ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ [القلم: ١٧]

ولكنّ القرآن أعطى اللفظ معنىً جديداً لم يعرفه الجاهليّون، إنّه الآن جنّةٌ عَرضها السموات والأرض، وهي دار الخلد التي وعد الله بها عباده المتّقين.

٢٩- عَدْن:

وهو اسمٌ آخر للجنّة لم يعرفه الشعر الجاهليّ. واقترح المفسّرون له معاني عديدةً تأتي كلّها تحت أوصاف الجنّة.

ثانياً: الصيغ اللغويّة والعلاقات الداخليّة

١- لم يكن الذين.. منفكّين:

اللفظ (منفكّين) مأخوذٌ من الفعل الناقص (ما انفكّ) أي (ما انقطع) أو (لم يتوقّف)، ولكنّ تحوُّل (ما) إلى (لم) في مطلع الآية، ثمّ مجيءَ اللفظ (يكُنْ) بعدها، اقتضى تحويله من فعلٍ إلى اسم، فخرجت الآية من كلّ ذلك بتركيبٍ نحويٍّ جديدٍ لم تعرفه العربيّة من قبل، ولا من بعد.

٢- ٣- أهل الكتابِ والمشركين [مكرّر]:

يتكرّر هذا التعبير القرآنيّ الجديد الذي يجمع بين ﴿ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ و﴿ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ مرّتين في السورة، ثمّ لا نجد هذا الارتباط بينهما في أيّة سورةٍ أخرى. والتعبير ﴿ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ مصطلحٌ جديد يطلقه القرآن على أتباع موسى والمسيح عليهما السلام فينسبهم إلى (الكتاب) المقدّس الذي لم تعرف الجزيرة العربيّة غيره كتاباً قبل نزول القرآن الكريم.

٤- منفكّين:

عرفنا في حديثنا عن ألفاظ السورة ومصطلحاتها أن اللفظ (منفكّين)، لا يتكرّر مرّةً أخرى خارج هذه السورة، لا هو ولا صيَغُه الفعليّة أو الاسميّة، ولكنّ هذا ليس كلَّ شيء.

فلم يحدث في العربيّة أبداً أن جُرِّد هذا الفعل، أو أيٌّ من صيَغه، من وظيفة إعماله عملَ الفعل الناقص، كما لم يحدث أن تحوّل من فعلٍ إلى اسمٍ وحافظ رغم ذلك على معناه الاصطلاحيّ (الانقطاع أو التوقّف عن فعل شيء) من مثل قولنا:

ما انفكّ ساهراً كلّ الليل، و:

ما ينفكّ يتساءل عن السبب.

وفي الأبيات التي استشهدنا بها سابقاً عن استعمال اللفظ عند الجاهليّين ما يغنينا عن الاستشهاد بغيرها. فمهلهِل بن ربيعة يقول: (ما ينفكُّ يُطعمُها) وذو الإصبع العدوانيّ يقول: (لا تنفكُّ تَبريني) وزهير يقول: (ما تنفكُّ خيلُهمُ شُعْثَ النواصي)، فيأخذ الفعل (انفكّ) عندهم باستمرار اسماً وخبراً، شأنه شأن أيّ فعلٍ ناقص.

أمّا في الآية فقد تجرّد من "فعليّته" وتحوّل إلى اسم فاعلٍ (أو صفةٍ مشبّهة) وهذا التحوّل يَحدث لأوّل مرّة، وكذلك لآخر مرّة، في لغتنا. ثمّ إنّه لم يعمل في الآية عمل فعله الناقص، فلم يأخذ اسماً ظاهراً أو خبراً، رغم أن مجيئه اسمَ فاعلٍ هنا لا يمنعه من أن يقوم بهذا العمل، تبعاً لقواعدنا النحويّة، وهذا أيضاً يحدث في لغتنا لأوّل مرّةٍ، ولآخر مرّة.

٥- تأتيَهمُ البيّنة:

كان تجاوُر هذين اللفظين جديداً على العربيّ الأوّل حين سمع الآية. والتعبير عن ظهور البرهان أو البيّنة باللفظ (تأتي) أمرٌ من المتوقّع أن يثير في ذهنه أكثر من تساؤل:

فكيف "تأتي" البيّنة؟

ومن أين تأتي؟

ومن يأتي بها؟

ومن السهل إدراك خصوصيّة هذا "التجاور" لو قارنّا بين السياق اللغويّ الذي احتوى اللفظ (بيّنة) في الآية؛ والسياق اللغويّ الذي يحتويه في الحديث الشريف عادةً؛ كما في النماذج النبويّة التالية:

- فقال لي رسولُ الله ﷺ: ألكَ بيّنة؟ قلتُ: لا..[1]
- البيّنةُ، وإلاّ حدٌّ في ظَهرِك[2]
- مَن قتل قتيلاً له عليه بيّنةٌ فله سَلَبُه[3]
- بَيِّنَتُكَ أو يمينُه[4]

ولا يتكرّر التركيب، بصيغته هذه، مرّةً أخرى في القرآن الكريم.

٦- رسولٌ من الله:

لا يتكرّر هذا التعبير مرّةً أخرى في القرآن الكريم، فهو خاصٌّ بهذه السورة وحدها، ونجد ما هو قريبٌ منه مثل: ﴿ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ و ﴿ رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، أو ما قد أصبح أكثر أُلفةً وسيراً على ألسنتنا: ﴿ ٱلرَّسُولُ ﴾ أو ﴿ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾.

٧- صُحفاً مطهَّرة:

وهذا تعبيرٌ قرآنيٌّ آخر لا يتكرّر هو أيضاً في غير هذه السُورة، ولم يعرفه العربيّ قبل القرآن الكريم.

٨- كُتبٌ قيّمة:

تعبيرٌ آخر اقتصر استعماله على هذه السورة، ولم يعرفه العربيّ قبل نزول القرآن الكريم.

---

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٢، ص٨٥١، حديث رقم: ٢٢٨٥.

(٢) المرجع السابق، ج٢، ص٩٤٩، حديث رقم: ٢٥٢٦.

(٣) المرجع السابق، ج٣، ص١١٤٤، حديث رقم: ٢٩٧٣.

(٤) المرجع السابق، ج٦، ص٢٤٥٨، حديث رقم: ٦٢٩٩.

٩- صُحفاً.. فيها كُتبٌ:

لا بدّ أنّ هذا التعبير قد استثار عقل العربيّ عندما سمعه لأوّل مرّة:

فكيف للكتب أن تكون "في" الصحف؟

وما طبيعة تلك الصحف التي تتضمّن في داخلها كتباً؟

وما تفسير هذه العلاقة الغريبة بين اللفظين؟

هذا بغضّ النظر عن معنى (كتب):

أهي التي نضعها على الأرفف اليوم؟

أم هي الكتب التي أطلقها العربيّ على رسائله؟

أو هي ما خطّته يده على العظام والجلود والحجارة والرمال؟

١٠- أُوتُوا الكتاب:

بدهيٌّ أن نحكم منذ الوهلة الأولى بجدّة هذا التعبير القرآنيّ، ما دام كلا لفظيه جديداً على العربيّ الأوّل: إمّا في معناه (الكتاب)، وإمّا في لفظه ومعناه (أُوتُوا) كما سبق أن عرفنا.

١١- مِن بَعدِ:

يقتضي منّا المقام التوقف هنيهةً عند هذا التركيب. فأنا لم أجده في الشعر الجاهليّ إلاّ مرّةً واحدة في بيتٍ يُنسب لشاعرٍ اسمه عمرو بن الأسود ولا نعرف عنه الكثير ونجهل تاريخ وفاته، وهو:

فنجوتُ من أرحامِهم مِن بعدِ ما جاشت إليك النفسُ عندَ المَأزِمِ

وبغضّ النظر عن وجود التركيب في الشعر الجاهليّ أو عدمه فإنّ زيادة (مِن) قبل (بعد) أمرٌ في غاية الندرة في لغتنا على مدى التاريخ وإلى الآن. إنّنا نقول:

زارني بعد أن زرتُه، و:

سمعت الخبر بعد أن نُشر في الصحف، و:

أشرقت الشمس بعد غيابٍ طويل.

والتركيب نادرٌ حتّى في الحديث الشريف؛ إذ لم أجده إلاّ مرّةً واحدةً في حديثٍ مشهورٍ جاء في رواية معظمهم (بعَد ما)[1] وجاء في رواية شُعبةَ وحده (مِن بعدِ ما)[2]:

– الحمد لله الذي أحيانا بعد ما/ مِن بَعدِ ما أماتَنا وإليه النشور

ثمّ إنّ من حقّنا أن نجعل منه تركيباً قرآنيّاً إذا أدركنا أنّ عدد مرّات استخدامه يقفز فجأةً من مرّةٍ واحدة في الشعر الجاهليّ، إذا صحّت نسبة البيت المذكور، إلى ١٣٥ مرّةً في القرآن الكريم! ولكنّ المفاجأة الحقيقيّة ما تزال تنتظرنا عند المنعطف:

إنّ في القرآن الكريم، كما نعلم، ١١٤ سورة، تتدرّج في ترتيبها من الأطول فالأقصر، مع عدم الالتزام دائماً بهذه القاعدة طبعاً. وتختلط في هذا الترتيب السوَرُ المكّيّة مع السوَر المدنيّة، ورغم أنّ معظم السور القصيرة، وهي تتركّز عادةً في الأجزاء الثلاثة الأخيرة من القرآن، هي سوَرٌ مكيّة، فهذا ليس قاعدةً أيضاً. فسورة (النصر) مثلاً، وهي مدنيّة، وكذلك سورتنا هذه (البيّنة)، وهي مدنيّةٌ أيضاً، نجدهما في الجزء الثلاثين، كما نجد سورة (الإنسان) وهي مدنيّة، في الجزء التاسع والعشرين.

ولكنّ المفاجأة هي أن التركيب القرآنيّ ﴿ مِنۢ بَعۡدِ ﴾ بأعداده الكبيرة (١٣٥ مرّة) يقتصر وجوده على النصف الأوّل من سوَر القرآن الكريم؛ أي إنّ استخدامه يبدأ من سورة (البقرة) ويمتدّ حتّى انتهاء سورة (الحديد) وهي السورة رقم (٥٧)

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٥، ص٢٣٢٦، حديث رقم ٥٩٥٣.

(٢) الشيباني، **مسند الإمام أحمد**، مرجع سابق، ج٤، ص٣٠٢، حديث رقم ١٨٧٠٨.

في القرآن، ثمّ يختفي في السور السبع والخمسين اللاحقة التي تشكّل النصف الأخير من سوَر القرآن الكريم، ولكن.. مع استثناءٍ واحد: سورة (البيّنة)..

في هذه السورة يظهر التركيب فجأةً، فيبدو منتصباً وحده في هذا السهل المنبسط الممتدّ لعشرات السوَر! فهل نستطيع أن نستنتج أمراً ما من هذا الوضع الحسابيّ الغريب؟

إنّ هذا التمايز الواضح بين الشخصيّتين اللغويّتين لنصفَي السوَر في القرآن الكريم دليلٌ آخر في وجه من ينفي حقيقة أنّ ترتيب سوَر القرآن توقيفيٌّ عن الله عزّ وجلّ، ويدّعي أنّ ترتيب السور هو ترتيبٌ وضعيٌّ من صنع الصحابة! وهل يتوقّع أحدنا أن يكون الصحابة قد أدركوا هذه الأرقام الإحصائيّة فقاموا بترتيب السوَر على أساسها؟ وهل أدركوا أيضاً سرّ استعمال الأداة (كان) وقد وردت في القرآن بمعنى (إنّ)، كما عرفنا في الجزء الأوّل، ما لا يقلّ عن ١٩٠ مرّةً؛ فأخّروا السوَر التي تتضمّنها فوضعوها في النصف الثاني من القرآن، بحيث خلت منها السوَر الستّ عشرة الكبار التي تشكّل النصف الأوّل من مجموع صفحات القرآن، مستثنين من ذلك سورة (النساء) وحدها، ثمّ لم يكتفوا بذلك، بل عمدوا إلى ترتيب السور في النصف الثاني، فجعلوا (كان) القرآنيّة العجيبة هذه تختفي لسبع سوَرٍ ثم تعود للظهور في سورةٍ واحدة، ثم تختفي لسبع سوَرٍ أخرى، ثمّ تعود للظهور في سورةٍ واحدة قبل أن تختفي من جديد لتظهر بعد ذلك في بعض السور القصيرة؟

إنّ الدراسات الحديثة ما تزال تقدّم لنا كلّ يومٍ المزيد من الأسرار والحقائق عن طبيعة النظام المحكم الذي قام عليه ترتيب سوَر القرآن الكريم.

١٢- جاءتهمُ البيّنة:

"مجيء" البيّنة هذا أمرٌ لن نتوقّع أن يكون تعبيراً مألوفاً لدى العربيّ الأوّل، مثله مثل التعبير الذي سبقه ﴿ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾، ولهذا لا نجده في الشعر الجاهليّ ولا في الحديث الشريف، ولا في أيّ مصدرٍ آخر من تراثنا.

١٣- إلاّ ليَعبُدوا:

وهذا استخدامٌ آخر لأداة الجر (اللام) مختلفٌ عن استخدام العرب لها. فهي هنا ليست للتعليل، كما ذهب بعضهم؛ إذ ليس المعنى: لم يؤمروا إلاّ أن يعبدوا، فحلّت اللام بنفسها محل (أنْ) المصدريّة التي اعتدنا أن نقدّرها بعد اللام التعليلية. إننا نقول في لغتنا البشرية: أمرتك أن تختفي من وجهي، ولا نقول: أمرتك لتختفي من وجهي. وهكذا تأتي اللام هنا بمثابة حرفٍ مصدريٍّ بنفسها فتؤوَّل مع ما بعدها بمصدر، والتقدير: أُمروا بعبادة الله.

١٤- مُخْلِصين (له) الدين:

عرفنا في حديثنا عن ألفاظ السورة ومصطلحاتها كيف جاء اللفظ (مخلصين) في معنى مختلفٍ عن استعمالاتنا اليوميّة له، وكذلك عن استعمالات الشعراء الجاهليّين، والأهمّ من كلّ ذلك: عن الاستعمالات النبويّة له.

ولكنّه في هذا التعبير جاء متعدّياً، خلافاً لاستعمالاته القرآنيّة الأخرى التي أتى فيها لازماً لا يحتاج إلى مفعولٍ به. فقد تعدّى هنا إلى مفعولٍ به هو (الدِين) أي (أخلصنا له الدينَ). وإذن، فنحن في هذه السورة أمام استعمالٍ جديدٍ ومتفرّدٍ لهذا اللفظ يتجلّى في علاقاته المختلفة مع ما يجاوره من ألفاظ.

١٥- حُنفاءَ:

هذا اللفظ هو حالٌ ثانيةٌ تابعةٌ لصاحب الحال الأخرى التي سبقتها (مخلصين)، وهو ضمير الجماعة في الفعل (ليعبدوا). ويتوقّع أحدنا، بالملَكة الفطريّة التي شيّدتْها في نفوسنا تراكماتُ لغتنا البشريّة، أن تأتي الحال الثانية منسجمةً مع الإيقاع اللغويّ للحال الأولى، فما دامت الأولى قد أُلحِقَت بالتركيب ﴿لَهُ ٱلدِّينَ﴾ فسوف نتوقّع، بتلقائيّتنا البشريّة الجاهزة، إلحاقَ تركيبٍ مُوازٍ بالحال الثانية أيضاً فتكون هكذا مثلاً:

مخلصين له الدّين حنفاءَ على هديه، أو:

مخلصين له الدّين حنفاء لشريعته، أو كما في الآية:

- ﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ ﴾ [الحج: ٣١]

ولكنّ السبيكة تتوقف هذا التوقّف المفاجئ عند الحال من دون أن تفتح الباب لأيّة ملحقاتٍ كنّا نتوقّعها بعدها.

١٦- ويُقِيموا الصلاة:

من الواضح أنّ هذا التعبير عن المحافظة على أداء الصلاة جديدٌ كلّيّاً لم يعرفه اللسان العربيّ قبل القرآن، وقد أصبح من التعبيرات القرآنيّة الأكثر تداولاً.

١٧- ويُؤتُوا الزكاة:

تعبيرٌ آخر جديدٌ عن أداء فريضة الزكاة لم يعرفه العربيّ قبل نزول القرآن الكريم، وأصبح أيضاً، كرديفه أعلاه، من أكثر التعبيرات تردّداً في القرآن الكريم.

١٨- وذلك دينُ:

الإشارة إلى القريب باستخدام الاسم المخصّص للبعيد (ذلك)، والإشارة إلى المجموع الذي تتحدّث عنه الآية: عبادة الله وإخلاص الدين له وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة؛ باستخدام اسم الإشارة الخاصّ بالمفرد، أمرٌ كان لا بدّ أن يفاجئ العربيّ حين سمع الآية للمرّة الأولى. كان له مثلاً أن يتوقّع الآية، تبعاً لأعرافه اللغويّة، بهذا الشكل: "وهذه جميعا هي دين القيّمة" (هكذا باسم الإشارة القريب والمؤنّث معاً، فاسم الإشارة المؤنّث يشار به للمفرد والجمع معاً كما نعرف، فنقول: هذه شجرة، وهذه أشجار). وهي مفاجأةٌ ما تزال تحتفظ بفاعليّتها إلى اليوم لأنّها بعيدةٌ عن أعرافنا اللغويّة المستمرّة حتّى الآن.

١٩- دينُ القيّمة:

وهو تعبيرٌ جديدٌ آخر من التعبيرات القرآنيّة التي أسهمت في تكوين عنصر المفاجأة للعربيّ الأوّل. ومرّةً أخرى لا يتكرّر التعبير في غير هذه السورة، ولا وجود له في الحديث الشريف.

٢٠- إنّ الذين.. في نار:

هل يتوقّع أحدنا الآن أن يسمع مثل هذا الخبر:

"إنّ الناجحين بالشهادة الثانويّة في العام الدراسيّ القادم يحضّرون الدكتوراه الآن في جامعة أوكسفورد.."؟

طبعاً سنعلّق قائلين: ما معنى هذا؟ وكيف يدرسون الدكتوراه الآن وينالون الشهادة الثانويّة في العام القادم؟

ولكنّ للقرآن أسلوبه المختلف، فالزمن يتداخل فيه حتى يغدو الحاضر كالماضي، والمستقبل كالحاضر، فمن ارتكب في حقّ الله أمراً فكأنّما نال عقوبته وحسابه سلفاً قبل أن يصل إلى يوم الحساب الفعليّ، ومن يدري، فلعلّ هذه الدنيا كلّها أشبه بشريط (فيديو) مصوّرٍ وجاهزٍ في "اللوح المحفوظ"، ويعاد عرضه الآن بعد أن تمّ التمثيل الحقيقيّ والإخراج والتصوير في الماضي قبل أن تُخلق هذه الأرض؟ وهكذا تكون المكافآت والعقوبات معَدّةً سلفاً لأصحابها، وكأنّهم قد قاموا حقّاً بالأعمال التي استحقّوا عليها تلك المكافآت والعقوبات.

٢١- إنّ الذين كفروا:

تتردّد هذه الصيغة في القرآن الكريم ١٨ مرّةً، ولكنّها كانت مع ذلك جديدةً تماماً على أذن العربيّ حين سمعها لأوّل مرّة. ولا وجود لها في الحديث الشريف.

٢٢- إنّ الذين آمنوا:

تتردّد هذه العبارة ١٦ مرّةً في القرآن الكريم، وكانت مع ذلك جديدةً أيضاً على الأذن العربيّة الأولى. ولا وجود لها في الحديث الشريف.

٢٣- نارِ جهنّم:

لم يعرف العربيّ قبل القرآن هذا التعبير الذي يربط النار لأوّل مرّةٍ بمثل هذا المكان الغامض: جهنّم.

٢٤- خالدِين:

لو قال أحدنا: "إنّ الحضور في القاعة منتظرين" لسمع أحدَهم يصحّح له قائلاً: "منتظرون" وهو على حقٍّ؛ لأنّ من المفترض أنّ هذا اللفظ الأخير خبرٌ مرفوعٌ للأداة (إنّ). ولكنّ للقرآن مقاييسه وأعرافه اللغويّة والنحويّة المختلفة.

إنّ اللفظ (خالدين) في الآية ليس خبراً للأداة (إنّ) في مطلع الآية، وإنّما هو حالٌ عمل فيها ما هو مستكنٌّ في الخبر الحقيقيّ المقدّر مع شبه الجملة؛ أي: (موجودون في نار جهنّم) وتقدير الآية، في نظري البشريّ القاصر طبعاً، هو: "هم في نار جهنّم يعانون خالدين فيها" فالعامل في الحال (خالدين) هو الفعل المفهوم من الخبر، أي فعلٌ مقدَّرٌ، أي: (يعانون أو يُعذَّبون أو يُحرَقون خالدين فيها).

ونحن لسنا ملزمين، أوّلاً وأخيراً، بإيجاد حلٍّ نحويٍّ لظاهرة النصب الفريدة هذه في القرآن، والتي أفضنا في الحديث عنها أثناء شرح (فنّ الالتفات) في الجزء الأوّل، ويجب أن نعترف بأنّ هذه الظاهرة القرآنيّة المكثّفة ظلّت فوق قواعدنا البشريّة المتداولة حتّى الآن.

٢٥- خالدِين:

مرّةً أخرى نحن هنا مع حالةٍ مشابهةٍ لحالة ﴿ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾. فالمعنى المراد هو أنّهم سيكونون خالدين عندما يُزَجُّ بهم في نار جهنّم، لكنّه عبّر عن هذا المستقبل بصيغة الحاضر (خالدين) مُسقطاً منها أيّة أداةٍ قد تشير إلى المستقبل، كحرف السين مثلاً. وإلاّ لقال شيئاً من هذا القبيل:

في نار جهنّم سيخلدون فيها، أو:

في نار جهنّم التي يَخلدون فيها، أو:

في نار جهنّم وسيَخلدون فيها.

٢٦- خالدِين فيها:

إنّ تكرار أداة الجرّ (في) مرّتين: (فيـ - ـها) ثمّ (في - نار) أمرٌ يستوقفنا، كما استوقف العربيَّ الأوّل. لو كان الأمر لنا لكان علينا أن نقول: "إنّ الذين كفروا.. سيَخلدون في نار جهنّم" أو "هم في نار جهنّم خالدون" وانتهت المسألة. ولكن الآية تحمل أكثر من هذا المعنى البشريّ المبسّط. إنّ ذكر وجود هؤلاء ﴿ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ وحده يكفي لإثارة ذعرهم ورعبهم من هذا المصير، حتّى إن كان ذلك لدقيقةٍ أو ثانيةٍ واحدة يُعرضون فيها على النار، فكيف إذا عرفوا أنّهم، فضلاً عن ذلك الوجود أو العذاب بنارها، سيكونون فيها إلى الأبد؟! إنّ تكرار (في) يأتي لتدعيم الشخصيّة الزمنيّة التي ستستغرقها إقامتهم في النار، لتكون كأنّها جملةٌ جديدة كاملة الأركان.

إنّه أسلوبٌ قرآنيٌّ جديدٌ حقّاً على العربيّ، ولكنّ هذه الجدّة لم تأتِ عبثاً بل هَدفت إلى أن تحقّق معنىً أو تضيف إضافةً؛ ما كانت الجملة العاديّة لتستطيع تأديتها بأبعادها البشريّة المحدودة.

٢٧- خالدين فيها:

الغريب في هذا التعبير القرآنيّ الجديد على العرب أنّه يتكرّر في القرآن الكريم ٣٧ مرّةً (ومرّةً واحدةً أخرى بالتذكير: خالدين فيه)، ومع ذلك، ورغم أهمّيته في الفكر الإسلاميّ، وتشعّب الحالات التي يختصّ بها هذا الخلود، والتي تتوزّع عادةً بين الجنّة والنار، يخلو منه الحديث الشريف تماماً، إلاّ في مجال شرح هذا التعبير القرآني والتعليق عليه، ومن ذلك ما روي عن أبي سعيدٍ الخُدريّ ﷺ:

- ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾. [هود: ١٠٧] قال: هذه الآية قاضيةٌ على القرآن كلّه؛ أي: تحكم وتهيمن عليه. يقول: حيث كان في القرآن ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ﴾ تأتي عليه [أي ينطبق الاستثناء في هذه الآية عليه].[1]

---

(١) البيهقي، أحمد بن الحسين. **الأسماء والصفات**، تحقيق: عبد الله الحاشدي، جدة: مكتبة السوادي، ط١، ١٤١٣هـ، ج١، ص٤١٥، حديث رقم ٣٣٦.

٢٨- أولئك:

نحن ما نزال ضمن الآية (٦) والمعنى ما يزال مستمرّاً في التوسّع، وإذن تخيّلوا أنّكم أنتم الذين تصفون حال هؤلاء البائسين، فماذا تقولون عندما تصلون إلى هذه المرحلة من الحديث؟ ستقولون شيئاً من هذا القبيل:

إنّهم سيخلدون في نار جهنّم.. وهُم، أو:

وهؤلاء هُم، أو:

وإنّهم.. شرُّ البريّة

أترون كيف كان علينا الاستعانة في كلّ خياراتنا بحرف العطف (الواو) لربط نهاية الآية بمقدّمتها، على حين خلت الآية من هذا الرابط؟ إنّه الأسلوب القرآنيّ الذي سبقت لنا أمثلةٌ كثيرة منه.

٢٩- ٣٠- أولئكَ هم [مكرّر]:

رغم أنّ هذا التعبير يتكرّر في القرآن ٦٠ مرّةً، ويكون فيه اسم الإشارة (أولئك) دائماً مبتدأً فلا يسبقه ما يحوّله عن هذا الموقع النحويّ، فإنّنا لا نعثر على مثله في الشعر الجاهليّ أبداً، ولا نجده كذلك في الحديث الشريف، وإنّما يأتي فيه اسمُ الإشارة تابعاً لما قبله، كما هو في لغتنا أيضاً، كمجيئه اسماً للأداة (إنّ) في قول الرسول ﷺ:

- لا تكونَنَّ فتّاناً ولا مُختالاً ولا تاجراً، إلاّ تاجراً بالخير، فإنّ أولئك هم المسبوقون بالعمل[1]

٣١ - شرّ البرَيّة:

تعبيرٌ قرآنيٌّ آخر لا نجد له ولا لصنوه ﴿ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾ أثراً في الشعر الجاهليّ. وربّما وجدناه في مجموعات الحديث الشريف ولكنّه يأتي غالباً على غير لسان الرسول ﷺ، كما في الرواية:

---

(١) الشيباني، **مسند الإمام أحمد**، مرجع سابق، ج٢، ص٨٧، حديث رقم ٦٥٧.

– قال رجلٌ لرسول الله ﷺ يا خيرَ البرِيّة، فقال: ذلك إبراهيمُ خليلُ الرحمن[1]

ولا يتكرّر أيٌّ من التعبيرين في أيّ موضعٍ آخر من القرآن الكريم.

٣٢ – وعملوا الصالحات:

وهو تعبيرٌ قرآنيٌّ جديدٌ سبق أن تحدّثنا عنه في دراستنا لسورة (العصر).

٣٣ – أولئك:

لقد خالف اسمُ الإشارة هذا كلّ توقّعاتنا؛ إذ لم نعتدْ في لغتنا أن يبدأ خبر (إنّ) باسم إشارةٍ هو أيضاً مبتدأٌ في جملة الخبر. إنّنا لا نقول مثلاً:

إنّ الناجحَ في مشروعاته هذا يربح، ولا:

إنّ المجتهدَين اللذين تراهما أمامك هذان متفوّقان؟ ولا:

إنّ السحابتين المقبلتين باتّجاهنا هاتان ممطرتان؟

٣٤ – خيرُ البريّة:

ينطبق على هذا التعبير ما ذكرناه عن صنوه ﴿ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴾.

٣٥ – جزاؤهم عند ربّهم:

نحن هنا من جديدٍ مع تعبيرٍ لا يربطه بما قبله أيّ رابطٍ لغويّ، وفي لغتنا البشريّة نتوقّع أن يقال هنا: وجزاؤهم، أو: وسيكون جزاؤهم.

٣٦ – جنّاتُ عَدْنٍ:

يتكرّر هذا التعبير في القرآن ١١ مرّة، وحيثما وُجد اللفظ (عَدْن) يسبقه دائماً اللفظ (جنّات) هكذا بالجمع، أمّا في الحديث الشريف فلا يكون هذا اللفظ إلاّ مفرداً (جنةَ عَدْنٍ) كما في قوله ﷺ:

---

(١) القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج٤، ص١٨٣٩، حديث رقم ٢٣٦٩.

- قال لي: هذه جنّةُ عَدْنٍ وهذاكَ منزلُك.[1]
- وما بين القومِ وبين أن يَنظروا إلى ربِّهم إلاّ رداءُ الكِبْرِ على وجهِه في جنّةِ عَدْن.[2]

ولا وجود لهذا التعبير في الشعر الجاهليّ.

٣٧ - خالدِين فيها أبداً:

هذا أيضاً تعبيرٌ جديدٌ يتكرّر في القرآن ١٠ مرّاتٍ بحيث استقرّت هويّته القرآنيّة في أذهاننا.

٣٨ - رضي الله عنهم:

في لغتنا البشريّة تتقدّم مثلَ هذه الجملة الحاليّة عادةً أداةٌ لا بدّ منها عندنا وهي (قد)، هكذا مفردةً أو مقرونةً بواو الحال (وقد)، فنقول هنا: "خالدين فيها وقد رضي الله عنهم"، هذا شأن الجملة الحاليّة في العربيّة عندما تبدأ بفعلٍ ماضٍ، كالفعل (رضي) هنا، ولكنّ لغة القرآن لها دائماً أعرافها المختلفة وخصوصيّتها.

٣٩- رضي الله عنهم:

لا وجود لهذا التعبير طبعاً في الشعر الجاهليّ، ويتكرّر في القرآن ٤ مرّات مقترناً فيها جميعاً بجزئه الثاني ﴿ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ﴾. وقد انتشر التعبير بعد ذلك بقوّةٍ في تراثنا المكتوب وعلى ألسنة الناس على السواء، وفي صيغه المختلفة، مفرداً ومثنّىً وجمعاً.

٤٠- ٤١- رضي عنهم/ ورضُوا عنه:

فوجئت حقّاً حين اكتشفت أن التعبير (رضي عن) تعبيرٌ قرآنيٌّ لم يعرفه العرب في الجاهليّة، بل إنّه ظلّ بعيداً عن معجمهم اليوميّ، إلاّ في السياق القرآني، حتى أواسط

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٤، ص١٧١٧، حديث رقم ٤٣٩٧.

(٢) المرجع السابق، ج٤، ص١٨٤٨، حديث رقم ٤٥٩٧.

الحقبة الأمويّة، فنجده أوّل ما نجده عند شاعرين توفّيا في الربع الأخير من القرن الهجريّ الأوّل وهما الحارث المخزوميّ (ت٨٠هـ) وعمر بن أبي ربيعة (ت٩٣هـ).

أمّا كيف استخدم الجاهليّون الفعل (رضي) فقد اقتصروا على تعديته بالباء (رضي بـ) أو تعديته بنفسه دون وسيط (رضي الشيء) ولم يقولوا أبداً (رضي عن)، كما نتبيّن من قولهم:

وقد طوّفتُ في الآفـــاقِ حتّى ... رضِيتُ مـــن الغنيمـةِ بالإيابِ

امرؤ القيس (ت٨٠ ق.هـ)

لو كان قلبي معي ما اخترتُ غيرَكمُ ... ولا رَضِيتُ سواكمْ في الهوى بَدَلا[1]

رضِيتُ بحُبِّها طَوْعـاً وكَرْهـــاً ... فهـــل أَحظَـى بها قبلَ الحِمـامِ

عنترة (ت٢٢ ق.هـ)

أمّا في القرآن الكريم فهو إمّا أن يتعدّى بالباء وإمّا أن يتعدّى بـ (عن)، وربّما تعدّى إلى مفعوله بنفسه من غير وساطتهما، أو ربّما لم يتعدَّ مطلقاً، كما في هذه النماذج القرآنيّة:

- ﴿ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [التوبة: ٨٣]
- ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ ﴾ [النمل: ١٩]
- ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣]
- ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ [الضُحى: ٥]

ومن الغريب أن يظلّ الحديث الشريف نائياً بشكلٍ كاملٍ عن هذا الاستخدام القرآنيّ الجديد للفعل، رغم تكراره في القرآن الكريم ١٣ مرّة، فلا يخالف الحديث كثيراً لغة الشعر الجاهليّ؛ إذ يتعدّى الفعل فيه بالباء، أو بنفسه، أو لا يتعدّى أبداً، كما في الأحاديث:

(١) مع الشكِّ الكبير في نسبة البيت الأوّل له، لما في لغته من ليْنٍ ورقّةٍ لا تنسجم مع شخصيّة عنترة ولا لغته ولا مع لغة الشعر الجاهلي.

obeikan.com

– .. رضِيْتُ باللهِ رَبّاً وبمحمّدٍ رسولاً وبالإسلامِ دِيناً[1]

– .. أنّ أعرابيّاً وهبَ للنبيّ ﷺ هِبةً فأثابهُ عليها، قال: رضِيتَ؟ قال: لا، قال: فزاده، قال: رضِيْتَ؟ قال: لا، قال: فزادَه، قال: رضِيتَ؟ قال: نعم.[2]

– .. فقيل لي: أرضِيتَ؟ فقلت: رضِيتُ ياربّ، رضِيتُ يا ربّ[3]

فإن عثرنا على هذا الاستخدام الجديد في الحديث الشريف ففي سياقٍ قرآنيٍّ واضح، كقوله ﷺ:

– .. فقُتلوا فقالوا: اللهمّ بلّغ نبيّنا ﷺ عنّا أنّا قد لقِيْناكَ فرضِينا عنكَ ورضِيتَ عنّا[4]

٤٢- ورَضُوا عنه:

بدهيٌّ ألاّ نستغرب رِضا الخالق على المخلوق، ولكن من حقّنا أن نتساءل، كما لا بدّ أن يكون قد تساءل العربيّ الأوّل: وكيف يصحّ للمخلوق أن يرضى "عن" الخالق؟ وهو سؤالٌ يستثيره فينا هذا التعبير القرآنيّ الغريب والمميَّز. وقد ذهب المفسّرون في تأويل رضا العبد على خالقه بأنّه شعوره الرائع عندما يظفر عنده بما لا عينٌ رأت ولا أذُنٌ سمعت، أو قالوا: إنّ رضاه هو ألاّ يكره ما يجري به قضاء الله، وقالوا غير ذلك.

٤٣- تَجري.. خالدين فيها.. رضي الله عنهم:

هذه حالةٌ فريدةٌ من توالي الأحوال لا أعرف ما يشبهها في تراثنا المكتوب.

---

(١) القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج١، ص٢٩٠، حديث رقم ٣٨٦.

(٢) الشيباني، **مسند الإمام أحمد**، مرجع سابق، ج٤، ص٤٢٤، حديث رقم ٢٦٨٧.

(٣) المرجع السابق، ج٦، ص٣٥٣، حديث رقم ٣٨٠٦.

(٤) الشيباني، **مسند الإمام أحمد**، مرجع سابق، ج٧، ص٦٥، حديث رقم ٣٩٥٢.

لقد جاءت هذه الأحوالُ الثلاث لتفصّل حال جملةٍ اسميّةٍ واحدةٍ هي ﴿ جَزَآؤُهُمْ .. جَنَّتُ عَدْنٍ ﴾. ومع أنّها جميعاً تبعت جملةً واحدةً؛ فقد جاءت كلّ حالٍ منها في شكلٍ لغويٍّ مختلفٍ، ولزمنٍ مختلف، وعاد كلٌّ منها إلى صاحبٍ مختلفٍ:

فقوله: ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ حالٌ جاءت في شكل جملةٍ فعليّةٍ للزمن المستقبل (تجري) وصاحبها هو ﴿ جَنَّتُ عَدْنٍ ﴾ -اللفظ (جنّات) معرفةٌ طبعاً لإضافته إلى (عدْن) وهي معرفةٌ فصحّ أن تكون الجملة التي تصفه حالاً له-.

وقوله: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ﴾ حالٌ جاءت في شكل اسمٍ (صفةٍ مشبَّهة) يدلّ على الزمن الحاضر (الآن)، أمّا صاحبها فهو الضمير (هم) في (جزاؤهم) والعائد على لفظ (المؤمنون) الذين ذُكروا في الآية السابقة.

وقوله: ﴿ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ حالٌ جاءت في شكل جملةٍ فعليّةٍ للزمن الماضي (رضي) وقد حذفت الأداة (قد) قبل الفعل -كما عرفنا- وصاحبها هو الضمير نفسه العائد على (المؤمنون) أيضاً، أي (حالُهم مرضيٌّ عنهم)، ولكن يمكن أن يكون صاحبها هو الله سبحانه وتعالى أيضاً (أي: أدخلَهم الجنّةَ وهو راضٍ عنهم) كما كانوا هم أيضاً (راضين عنه).

٤٤- ذلك:

ينطبق على اسم الإشارة هذا ما انطبق على رديفه السابق في قوله تعالى ﴿ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾. إنها إشارةٌ باسمٍ، اختصّ عادةً بالبعيد والمفرد، إلى ما هو قريبٌ، فقد ذُكر لتوّه، وإلى ما هو مجموعٌ: جنّات عدْن، والخلود فيها، ورضا الله عنهم، ورضاهم عنه.

٤٥- ذلك:

هنا أيضاً يتكرّر الأسلوب القرآنيّ في الاستغناء عن الرابط بين الجملتين رغم تتاليهما في آيةٍ واحدة، ولو كانت لغتَنا لقلنا: "**وذلك** (أو: **وهذا**) لمن خشي ربّه".

٤٦- خَشيَ ربَّه:

لم يعرف الجاهليّ طبعاً هذا التعبير القرآنيّ الخاصّ، وهو لا يتكرّر في القرآن في غير هذه الآية، رغم أنّ الفعل (خشي) يتكرّر فيه مع مشتقّاته ٤٨ مرّة.

ولا وجود لهذا التعبير في الحديث الشريف.

ثالثاً: السبائك القرآنيّة

١- لم يكنِ الذين كفروا.. منفكّين:

تحمل هذه السبيكة مقوّمات قرآنيّتها بشكلٍ خاصّ من خلال الوضع النحويّ الخاصّ والجديد للأداة (لم) التي تعني هنا (لنً) كما سبق أن أوضحنا، وكذلك الطبيعة الجديدة لاسم الفاعل (منفكّين) بعد أن تجرّد من وظيفته التقليديّة التي كان عليها في لغتنا بعمله عمل الأفعال الناقصة (ما انفكّ)، فضلاً عن النظام الفريد الذي اتّخذته ألفاظ السبيكة، نتيجةً لهذا الوضع النحويّ الخاصّ، والعلاقات اللغويّة الجديدة التي نشأت فيما بينها.

٢- وما تفرّق الذين أوتوا الكتاب إلاّ مِن بَعدِ ما:

أقرب السبائك القرآنيّة إلى هذه السبيكة؛ إذ لا أجد سبيكةً أخرى مطابقةً لها تماماً في القرآن، هي هذه الآية:

- ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ ﴾ [الشورى: ١٤]

السبيكة الأخيرة تخلو من التركيب القرآنيّ الهامّ ﴿ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾، ولكنّ السبيكتين كلتيهما لهما تفرّدهما بهذا الفعل الماضي المنفيّ الذي ابتدأتا به، وكذلك بهذا التركيب القرآني الجديد الذي اختُتمتا به ﴿ مِنۢ بَعۡدِ مَا ﴾.

٣- وما أُمِروا إلاّ ليَعبُدوا الله:

هذه السبيكة تستمدّ خصوصيّتها من افتتاحها بصيغة المبنيّ للمجهول القرآنيّة الشائعة، مسبوقةً بالنفي، واختتامها بجملةٍ مرتبطةٍ باللام القرآنيّة المصدريّة التي تعني (أنْ) – كما رأينا – (لِيَعبُدوا)، والمسبوقة بأداة الاستثناء (إلاّ).

٤- مخلصين له الدينَ حُنَفاء:

عدا عن التركيب النحويّ الخاص الذي بُنيت عليه هذه السبيكة، ولا سيّما وضعُ الحال الأولى (مخلصِين) وعملُها عمل الفعل في اللفظ (الدين) الذي أصبح مفعولاً لها، وكذلك وضع الحال الثانية (حنفاء) التي تجرّدت من أيّة ملحقات – كما عرفنا – فإنّ ما ذكرناه سابقاً من خصوصيّة اللفظين (مخلصِين، وحنفاء) يضيف إلى خصوصيّها القرآنيّة بعداً أفقيّاً آخر.

٥- ويقيموا الصلاةَ ويُؤتوا الزكاة:

أقرب السبائك القرآنيّة إلى هذه السبيكة قوله تعالى:

- ﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [التوبة: ٧١]

الفارق بين السبيكتين بسيطٌ جدّاً، ولكن تبقى لسبيكتنا، بشكلها المستقلّ عن أيّة سبيكةٍ قرآنيّةٍ أو بشريّةٍ أخرى، خصوصيّةُ اجتماعِ هذه الألفاظ القرآنيّة الأربع متجاورةً فيها، وهي كثيراً ما تتجاور في القرآن ولكنَ في صياغاتٍ مختلفة.

٦- وذلك دِينُ القيّمة:

تستمدّ هذه السبيكة خصوصيّتها من الاستعمال الخاصّ لاسم الإشارة (ذلك) –كما رأينا– ومن مجيء خبرِه بعده مباشرةً من غير أن يسبقه الضمير المنفصل (هو) الذي اعتادت لغتنا البشريّة إضافته في سياقٍ كهذا فنقول (ذلك هو دين القيّمة)، وأخيراً مجيء اللفظ الخاصّ والمؤنّث الذي أضيف إليه الخبر وهو (القيّمة).

ومن الواضح أنّ السبيكة القرآنيّة كانت ستصبح على لساننا البشريّ شيئاً من هذا القبيل (تلك هي حقيقة الدين القيّم عليكم).

٧- في نارِ جهنّم خالدِين فيها:

رغم كثرة السبائك التي توشك أن تطابق هذه السبيكة في القرآن؛ تظلّ لها خصوصيّتها في بنائها النحويّ. وأقرب السبائك القرآنيّة إليها قوله تعالى:

- ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ﴾ [التوبة: ٦٨]
- ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ [الجنّ: ٢٣]
- ﴿ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ ﴾ [الزُمَر: ٧٢]

٨- ٩- أولئك هم شرُّ البريّة/ أولئك هم خير البريّة:

هاتان السبيكتان، ببنائهما النحويّ الخاصّ، تقتصران على هذه السورة فلا تتكرّران في أيّ موضعٍ آخر من القرآن. وممّا يمنحهما خصوصيّةً إضافيّةً تلك التعبيرات القرآنيّة الجديدة المميّزة التي تتكوّنان منها ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ ﴾ و ﴿ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾ و ﴿ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾.

١٠- الذين آمنوا وعملوا الصالحات:

تتكرّر هذه السبيكة، وبشكلٍ حرفيٍّ، في ٤٧ آيةً من القرآن، وتستمدّ خصوصيّتها من اجتماع خصوصيّة التركيبين ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ و ﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾، فضلاً عن البناء النحويّ العامّ للسبيكة.

١١- جزاؤهم عند ربّهم جنّاتُ عَدنٍ:

لا تتكرّر هذه السبيكة في أيّ موضعٍ آخر من القرآن، وتأتي خصوصيّتها من عدّة عناصر أسهمت جميعاً في تفرّدها:

أ- توجُّه معناها إلى المستقبل (سيكون جزاؤهم) رغم أنّها جاءت نحويّاً في صيغة الحاضر،

ب- الحال المحذوفة قبل الظرف (عند) والتقدير: "جزاؤهم، كائناً عند ربّهم، جنّاتُ عدْن"،

ت- وأخيراً التركيب القرآنيّ المميّز ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٍ﴾.

١٢- جنّاتُ عَدنٍ تجري مِن تحتِها الأنهار:

تتكرّر هذه السبيكة، وبألفاظها نفسها، مرّةً واحدةً أخرى في سورة (طه)، ولكن تقترب منها كثيراً سبائك قرآنيّةٌ شتّى، من مثل قوله تعالى:

- ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾ [الكهف: ٣١]
- ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٍ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾ [النحل: ٣١]

وعدا عن بنائها النحويّ الخاصّ والمميَّز تكتسب السبيكة قرآنيّتها بشكلٍ خاصٍّ من الطبيعة النحويّة للحال في الفعل (تجري)؛ إذ تكون الحال في لغتنا شيئاً من هذا القبيل:

جزاؤهم جنّات عدنٍ وفيها الأنهار تجري من تحتها، أو:

والأنهار تجري من تحتها

١٣- رضي الله عنهم ورضُوا عنه:

هذه سبيكةٌ أخرى تستمدّ تفرّدها من وضع الحال في الفعل (رضي) خاصّةً، فلغتنا البشريّة تقول في مثل هذا المقام:

وقد رضي الله، أو:

واللهُ راضٍ عنهم

وتستند السبيكة في تفرّدها أيضاً إلى الاستعمال القرآنيّ الخاصّ للفعل (رضي) -كما رأينا- في كلٍّ من الجزء الأوّل والجزء الثاني من السبيكة.

١٤- ذلك لمن خشيَ ربَّه:

تقوم خصوصيّة هذه السبيكة على بنائها النحويّ الخاصّ، وعلى الاستخدام المميّز للّفظ (ذلك)، وكذلك على تفرّد التعبير ﴿ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴾ أيضاً، كما سبق أن أوضحنا.

رابعاً: اللغة المنفتحة

١- منفكّين:

تعدّدت معاني هذا اللفظ عند المفسّرين نتيجةً لتخلّيه في الاستخدام القرآنيّ عن وظيفته النحويّة التقليديّة، ومن ثمّ انفتاحه على احتمالاتٍ متعدّدة:

فذهبوا إلى أنّ معناه هنا هو التوقّف والكفّ عن الأمر، وقيل: هو الانتهاء وبلوغ الغاية، وقيل: هو المبارحة والانتقال، وقيل: بل هو الزوال، وقيل: بل الموت والهلاك، وقيل غير ذلك.

٢- لم يكن الذين كفروا ... منفكّين:

إنّ المعنى القرآنيّ الجديد الذي اكتسبه كلٌّ من الأداة (لم) واللفظ (منفكّين) في هذه الصياغة، ثمّ تَحَرُّرَ هذا اللفظ الأخير من الارتباط بأيّ أداةٍ أو لفظٍ بعده؛ إذ لم تذكر الآية طبيعة هذا الانفكاك، وعمّ ينفكّون، أعطيا هذه السبيكة قوّةً طيفيّةً تفتح أبوابها على أكثر من معنىً. وهكذا ذهب المفسّرون في تفسيرها مذاهب شتّى:

فقالوا: لم يكونوا مفارقين لكفرهم ولا منتهين عنه،

وقالوا: لم يكونوا ليبلغوا نهاية أعمارهم فيموتوا حتّى تأتيهم البيّنة،

وقالوا: لم يكونوا تاركين صفة محمّدٍ ﷺ حتّى بُعِث، فلمّا بُعث حسدوه وجحدوه،

وقالوا: لم يكونوا معَذَّبين ولا هالكين إلاّ بعد قيام الحجّة عليهم،

وقالوا: إنّهم لم يكونوا منتهين عن شركهم حتّى أتاهم محمّد ﷺ،

وقالوا: إنّها حكايةٌ لما كان يقوله أهلُ الكتاب والمشركون من أنّهم لا يفارقون دينهم حتّى يُبعث النبيّ الموعود، فلمّا بُعث تفرّقوا، كما حكاه الله عنهم بعد ذلك،

وقالوا: لم يكونوا تاركين لصفة محمّدٍ ﷺ في كتابهم من أنّه نبيٌّ؛ حتّى ظهر، فلمّا ظهر تفرّقوا واختلفوا،

وقالوا أخيراً: إنّ هذه الآية من أصعب ما في القرآن نظماً وتفسيراً.

٣- البيّنة:

وتِبعاً لهذا الاختلاف يتأرجح معنى (البيّنة) بين معانٍ عدّة:

فهي القرآن عند بعضهم،

وهي الرسول ﷺ عند آخرين، كما تُبيّن الآية بعدها،

وهي البيان الذي في كتبهم من أنّه نبيٌّ مرسلٌ عند غيرهم.

٤- صُحفاً مطهَّرة:

اختُلف حول حقيقة هذه الصحف نتيجةً للسياق غير العاديّ الذي جاءت فيه، ولا سيّما الحديث عن وجود "كتبٍ قيّمةٍ" في هذه الصحف، كما تنصّ الآية التي بعدها. وهكذا قالوا:

إنّ الصحف هي القرآن،

وقالوا: إنّها التي عند الله في أمّ الكتاب،

وقيل: هي الكتب،

وقيل: هي اللوح المحفوظ.

٥- كتبٌ قيّمة:

ولأنّهم ذهبوا في (الصحف) مذاهب شتّى كان بدهيّاً أن يفعلوا ذلك مع (الكتب القيّمة) التي تحتويها هذه الصحف:

فهي القرآن حيناً، وقد جعله كتباً لأنّه يشتمل على أنواعٍ من البيان،

أو هي الكتب السماويّة كلّها،

أو هي المكتوبات علينا من فرائض وأقدارٍ ومصائر،

أو هي سور القرآن وآياته فكلّ سورةٍ منه كتابٌ قويم،

أو هي الأحكام والشرائع التي تضمّنها القرآن وبها يتبيّن الحقّ من الباطل،

أو هي غير ذلك.

٦- وما تفرَّق الذين أوتوا الكتابَ:

لقد تبيّن لنا كيف اختلف المفسّرون في معاني "تفرّق" نتيجةً لاختلافهم في تأويل الآية الأولى من هذه السورة، فانعكس اختلافهم على هذه الآية، ومنحها أبعاداً معنويّةً جديدةً متباينة.

٧- إلاّ مِن بَعدِ ما جاءتهمُ البيّنة:

ولقد تبيّن لنا كيف تفرّق المفسّرون، للأسباب نفسها، في تأويل هذه "البيّنة". ثمّ قالوا: إنّ (البيّنة) الثانية في السورة غير الأولى، فالثانية جاءت على ألسنة أنبيائهم فتفرّقوا بعدهم مع وجود تلك البيّنة، أمّا الأولى فهي الرسول ﷺ أو القرآن، فتفرّقوا في موقفهم منه وحكمهم عليه.

٨- مخلِصين له الدين:

إنّ الاستخدام الجديد الذي استنّه القرآن لهذا اللفظ، كما عرفنا، جعله مفتوحاً على أكثر من اتّجاه:

فهم جاعلون دينهم خالصاً له سبحانه بغضّ النظر عن أيّ دينٍ آخر، أو:

هم جاعلون أنفسهم خالصةً له تعالى، أو:

جاعلون عبادتهم خالصةً له وحده.

هذا إلى جانب اتّساع معنى (الإخلاص) وحقيقته في هذا السياق من الآية.

٩- حُنفاء:

تعدّدت آراء المفسّرين في معنى هذا اللفظ؛ نتيجةً لاختلافهم حول حقيقة جذره في اللغة من ناحية، ولانقطاعه عن الوصف أو الإضافة من ناحية ثانية. فلو قال: حنفاء في صلاتنا، أو: حنفاء العقيدة، أو: حنفاء مستقيمين، لساعدنا هذا على اقتراح معنىً محدّدٍ للّفظ، ولكنّ هذا كان من شأنه أن يَحْرِمنا في الوقت نفسه من الشحنة الإيحائيّة الغنيّة بالمعاني التي يدّخرها هذا اللفظ. وهكذا تعدّدت الآراء في تأويله، فقالوا:

أصل الحَنَف في اللغة هو المَيل؛ أي مائلون إلى الإسلام، وقالوا:

الحنيف في اللغة هو المستقيم، وقد سَمَّوا معوجَّ الرِجل (أحنفَ) تفاؤلاً، كما قيل للأعمى (أبو بصير)، وقالوا:

الحنيف هو المائل عن جانبَي الإفراط والتفريط إلى الوسط والاعتدال، وقالوا:

هو المَائل إلى الخير عامّةً، أمّا المائل إلى الشرّ فهو المُلحِد، وقالوا:

هو من كان على دين إبراهيم، وقالوا:

هو من آمن بجميع الرسُل ولم يستثنِ أحداً منهم، وقالوا:

هو من يستقبل القبلة بصلاته، وقالوا:

هو من اختتن وحجّ وحرّم الزواج من المَحارم،

وقيل غير ذلك.

١٠- دِينُ القيّمة:

تعدّدت معاني هذه العبارة بقدر ما اختلفوا على معنى اللفظ القرآنيّ الجديد (القيّمة)، وكذلك على طبيعة علاقته مع اللفظ الذي قبله، وهكذا وجدنا أنفسنا أمام احتمالاتٍ عديدة:

فقيل: هو دين الملّة المستقيمة، أي إنّ (القيّمة) صفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ،

وقيل: (القيّمة) جمع القيّم، أي هو دين القيّمين على الحقّ،

وقيل: هو من إضافة الشيء إلى نفسه أو موصوفه، أي: الدين القيّمة، فالدِين هو القيّمة،

وقيل: دخلت الهاء للمدح والمبالغة،

وقيل: هو دِين الأمّة القائمة بالحقّ،

وقيل غير ذلك.

١١- ١٢- البرِيّة:

تكمن الطبيعة الانفتاحيّة لهذا اللفظ في اختلافهم على أصل جذره من ناحية، وفي اتّساع معناه من ناحيةٍ ثانية.

فقد قيل: إنْ أُخِذ اللفظ من (البَراء) وهو التراب، لم تدخل الملائكةُ تحته -إذ لم تُخلَق من ترابٍ كالإنسان-، وإن أُخِذ من (بريت القلم) أي قدّرته، دخلَت،

وقيل: هو كقوله لليهود: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي على عالَمِي زمانكم،

وقيل: قد يشمل من كانوا أيّام الرسول ﷺ وقد يشمل من كان قبله وبعده أيضاً،

وقيل غير ذلك.

١٣- جنّاتُ عَدْنٍ:

لم يستطع أحدٌ من اللغويّين والمفسّرين أن يقطع رأياً في معنى (عَدْن) ومن ثمّ في حقيقة ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٍ ﴾:

فقيل: هي من (عَدَنَ بالمكان يَعدِن) أي أقام، ومنه المَعْدِن،

وقيل: معدِن الشيء: مركزه ومستقرّه،

وقيل: هي بُطنان الجنّات، أي أوسطها وأفضلها،

وقيل: العدْن هو الخلود، وجنّاتُ عدْنٍ: جنّاتُ خلود.

١٤- تجري مِن تحتِها الأنهار:

انفتاح العبارة هنا يأتي من اللفظ (تحتِها) خاصّةً:

قالوا: إنْ أُريدَ بالجَنّات الأشجارُ الملتفّة فجريان الماء تحتها مفهوم،

وإن أُريدَ بها الأشجارُ مع الأرض فالجريان هو تحت جزءٍ منها فقط وهو الأشجار،

وربّما كان الجريان تحت الأرض أيضاً،

وربّما كان الجريان غير الجريان الذي نعرف،

أو كانت الأنهار غير الأنهار،

أو كانت الأشجار غير الأشجار، والأرض غير الأرض،

وقيل غير ذلك.

وقال الرسول ﷺ: "أنهارُ الجَنَّةِ تَخرجُ من تحتِ تلالِ، أو من تحتِ جبال المسك."(١)

---

(١) البستي، **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، مرجع سابق، ج١٦، ص٤٢٣، حديث رقم ٧٤٠٨.

١٥ – ورَضُوا عنه:

سبق أن تحدّثنا عن المعاني المتعدّدة التي يمكن أن يحتملها هذا التركيب المثير عند العربيّ الأوّل، وستظلّ تفسيراتنا البشريّة في النهاية عاجزةً عن الإحاطة بطبيعة هذا الرضا.

١٦ – ذلك لمن خشيَ ربَّه:

يتركّز سرّ انفتاح معنى هذه الآية في اللفظ (ذلك):

فهو قد يشير إلى جنّات عدْن،

وقد يشير إلى الخلود في هذه الجنّات،

أو قد يشير إلى "رضا الله عنهم ورضاهم عنه"،

أو ربّما إلى أشياء أخرى أيضاً.

خامساً: جوامعُ الكَلِم

١– حتى تأتيَهمُ البيّنة:

هذا التعبير القرآنيّ يمكن أن يسدّ فراغاتٍ كثيرةً في لغتنا المحكيّة والمكتوبة، فنتمثّل به أمام من ادّعى على إنسانٍ بجرمٍ أو دَينٍ وهو لا يملك ما يُثبت ادّعاءه، أو يمكن أن نوجّهه إلى من لا يصدّق شيئاً إلاّ أن يراه بعينه.

٢– فيها كُتُبٌ قيّمة:

أضحت هذه العبارة في لغتنا عنواناً لكثيرٍ من المكتبات الخاصّة، ومكتبات المساجد بشكلٍ خاصّ، ولمصادر المعلومات بشكلٍ عامّ.

٣- مخلصين له الدينَ حُنفاء:

عدا عن دخول هذه العبارة في عدة مظاهر من عباداتنا (في تكبيرات العيد وتسبيحاتنا مثلاً) فمن الممكن أن يكون لها مكانٌ في أحاديثنا العاديّة اليوميّة أيضاً، كأن يقال: لن ننال النصر حتّى نكون ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.

٤- أولئك هم شرُّ البرَيّة:

قد تطلَق هذه العبارة القرآنيّة على أيّة مجموعةٍ شرّيرةٍ من الناس، أو أفرادٍ عاثوا في الأرض فساداً.

٥- الذين آمنوا وعملوا الصالحات:

يوصف بهذه العبارة، وهي من أكثر العبارات تكراراً في القرآن الكريم، من نتوسّم فيهم خيراً من الناس، لما نرى من عباداتهم وأخلاقهم وحسن تعاملهم مع الآخرين.

٦- أولئك هم خيرُ البريّة:

وفي هذه العبارة ما يعيننا على التعبير عن إعجابنا بأيّة مجموعةٍ من الناس، أو أفرادٍ منهم، حملوا على أكتافهم هموم الناس، واتّقوا الله في سرّهم وعلنهم، وأخلصوا أنفسهم لله وللعباد.

٧- جنّاتُ عَدْنٍ تجري مِن تحتِها الأنهار:

تُطلق هذه العبارة القرآنيّة عادةً في معرِض الحثّ على العمل الصالح وترغيب الناس بما ينتظرهم من الأجر والثواب عند الله، أو ربّما في معرض وصف مكانٍ جميلٍ يزخر بالمياه والخضرة والحياة.

٨- رضي الله عنهم:

وقد سَرت هذه العبارة على ألسنة المسلمين فألحقوها بأيّ اسمٍ يُذكر للصحابة الكرام أو تابعيهم.